بين سفيرتين: تعلُّم بلا حدود

آلاء رياض حميدة

المعلمة آلاء حميدة.

في طريقي إلى الجامعة، وأنا أستقل تلك السيارة ذات اللون البرتقالي، شرعت أرسم صورة الجامعة في مخيلتي، حيث أني لم أرها من قبل، كنت أردد في نفسي: الحمد لله وصلت إلى ما أريد؛ إكمال دراستي الجامعية. بدأ مشواري، فغمرت عقلي وقلبي وتفكيري في اللاحدود، سأكون ما أريد، أريد أن أكون سفيرة لفلسطين في الولايات المتحدة الأمريكية، لأنقل لهم ما نعاني وما نريد أن يكون في وطننا، نريد فلسطين الحرة، بلا احتلال عسكري، بلا احتلال ثقافي، بلا احتلال فكري، بلا احتلال اقتصادي، بلا احتلال تاريخي، بلا احتلال لسلاسل لَعينة نقيد بها أنفسنا. لم أشعر بالمسافة، ولم أشعر بالمطبات التي غالباً ما كانت تسبب لي الإزعاج، حتى أنني لم أشعر بانتقالي من قرية إلى قرية حتى أصل إلى رام الله، حينها سألني سائق السيارة: «وين بدك تنزلي ... ع سردا؟ قلت له: نعم. كانت تجلس بجانبي امرأة من بلدتي في الخمسينيات من عمرها، لم أنتبه لها طوال هذه المسافة؛ لأنني مستغرقة في التفكير في جامعتي، في مستقبلي، قالت لي: مش إنتي بنت رياض؟

أجبتها: نعم.

- ليش بدك تنزلي ع سردا؟

قلت لها: أريد الذهاب إلى الجامعة ! تفاجأَت ... الجامعة!

- مش تزوجتي؟
- نعم تزوجت.
- طيب ليش الجامعة! اقعدي في دار جوزك أحسنلك، يعني الشهادة بدك تعلقيها في المطبخ هيك رح يصير.

انتهى الحديث حين توقف السائق على مفترق سردا- رام الله، وقال لي هنا استقلي سيارة الجامعة ... حمدت الله أن السيارة توقفت لأنني لم أكن أعرف ماذا سأفعل لتلك المرأة، حيث أن نظراتي أوحت لها بعدم الرضا عن حديثها، ربما هي حمدت الله أيضاً أنني نزلت من السيارة.

وصلت للجامعة، وصلت لباعثة آمالي وطموحاتي، سأسافر من خلالها في بحر المعرفة، وأركب سفينة الأمل حتى أصل إلى ما أريد، وبدأ مشواري.

متطلبات جامعية وأخرى للكلية، وبعدها متطلب تخصص، إلى متى سأظل أصارع كلمات لم أعد أطيقها، مطلوب -مهم- إجباري-

وإلى أي حين سأظل تحت قيود الحدود التي وضعت في عقولنا، ومناهجنا، وتفكيرنا، وهويتنا ... حدود الحدود التي يريدون بها طمسنا ولجمنا، لم أعد أحتمل. صعقتُ عندما أيقنت أن مناهجنا فعلاً عقيمة، كنت أدرك ذلك أثناء دراستي في المدرسة، ولكن معلماتي كن بشكل أو بآخر يحاولن إقناعنا بعكس ذلك، وكنت دائماً أقول: أنهي عتبة التوجيهي ... ذلك الشبح الذي كان يؤرق نومي، نعم كانت بالنسبة لي شبحاً وزنزانة، كاد يقيدني بحبل قوي ويدكني في سجن اليأس، ولكن لم أدعه، قطعت ذلك الحبل البائس، وتشبثت بحبل الأمل الذي يؤهلني لما أريد، أريد أن أكون سفيرة، كنت أقولها لمعلماتي مراراً وتكراراً، كن يبتسمن تارة ويعلقن تارة أخرى، أذكر حين قالت معلمتي :»لا .... سفيرة! وين مفكرة حالك وين راح المجتمع ... وأهلك...، ابحثي عن وظيفة أسهل».

لم أكن أريد البحث عن وظيفة ... وظيفة ... وظيفة ...، أريد أن أكون ما أريد، طموح، فائدة، مساعدة، أمل، حرية، فكر جديد.

رأيت الجامعة، رأيت الكلية، كنت في صف مدرسي، وأصبحت في قاعة محاضرات، كنت أجلس على كرسي ودُرج، وأصبحت أجلس على مقعد وطاولة، كانت المعلمة تدرسني من الكتاب وفي حدوده، وأصبحت أتعلم على يد أستاذ جامعي أيضاً في حدود كتاب معين. كنت أظن أنني سأدرس مساقاً يسمى «سفير أو سفيرة لفلسطين»، لكني لم أجد ذلك.

وبدأت أتخبط طريقي من جديد؛ كأنني في سيارة مسرعة في انحدار وبلا سائق تجنح ذات اليمين وذات الشمال، وصار عقلي كالموج الهائج الذي يتلاطم في كل النواحي، كنت لا أريد أن أصحو في الصباح، ولا أريد العودة إلى الجامعة.

من أي الطرق أبدأ؟ لم لن أدع شيئاً يوقفني، لن أكبل نفسي في قيود لعينة بائسة ... نعم أستطيع أن أبدل نقطة البداية لعلها تكون ملائمة ومرضية ومناسبة لحياتي الجديدة، لأنني التحقت بالجامعة بعدما أنجبت طفلتي الأولى في السنة الدراسية الأولى في الجامعة، وازدادت مسؤوليتي؛ فالجامعة مشوار جديد في حياتي، وأيضاً التعامل مع طفلة حديثة الولادة شكّل تحدياً آخر في مسيرتي.

عانيت كثيراً في سبيل التوفيق بين الدراسة والبيت وابنتي، وكانت تمر أيام خاصة في وقت الامتحانات دون نوم، وازدادت الضغوطات بعد أن أنجبت طفلين آخرين أثناء دراستي. ومرت أيام لم أكن أرى فيها أطفالي، وبخاصة في سنة التخرج، وإعداد مشروع تخرجي، كانت والدتي فيها هي المعين والمنقذ والنبراس الذي أضاء طريقي، فكانت لأيام عديدة أماً لأولادي.

كنت أبكي أحياناً وأنا أحمل بين يدي كتباً يجب أن أقرأها وأبحاثاً يجب أن أكتبها من شدة شوقي لهم. شعرت خلال هذه الفترة بالتعب والإرهاق الجسدي، ولكن إرادتي ازدادت، ورغبتي الملحة في التفوق والتميز كانت شعاري الوحيد، وفعلاً خلال تلك الفترة بحثت عن نفسي من جديد، ووجهت طاقاتي نحو فكرة ربما هي سجينة في داخلي، وانقشع الضباب من أمامي، وأشرقت طلائع فجر النجاح، والتحقت ببرنامج اللغة العربية، ووجدت في داخلي رغبة في التخلص من حدود عبارة «مادة اللغة العربية» كمادة، وأعرب ... وانسخ ... واحفظ ... إلى غيرها من الكلمات التي تثقل كاهلنا.

نعم، سأدرس اللغة العربية، اللغة العربية كلغة وثقافة وعلم وتاريخ وهوية وفن، سأكون سفيرة للغتي العربية التي أعتز بها أمام العالم، سأصبح سفيرة للغة القرآن، سأعلمها للطلاب ولأولادي، سأزرع حب اللغة في داخلهم، وأطمح أن أجعلها نافذة يَرون من خلالها العالم، ويرانا العالم من خلالها.

ووصلت إلى ما أرنو إليه، وتخرجت من الجامعة، وأنا أملك ما أسدُّ به رمقي، وأستعين به في إنارة طريقي نحو تطلعات وآمال أريد أن أحققها في مسيرتي العلمية. أصبحت معلمة، والبداية كانت في برنامج التعليم المساند منذ ثلاث سنوات، ربما وضعي كمعلمة، وبخاصة لأنني أتعامل مع طالبات يحتجن رعاية خاصة، ويحتجن إلى عطف وحنان وبناء ثقة بيني وبينهن، لأنهن أقل حظاً في تحصيلهن الدراسي، كان يشعرني بالسعادة، حينها كان يحضر في ذاكرتي، وأنا طالبة، عندما تحضر معلمة جديدة، أبدأ في رسم شخصيتها وأنتبه لكل كلمة تقولها في اللقاء الأول، منهن من كانت تبدأ بإعطاء الأوامر والتعليمات، ومنهن من يبدأن بالتهديد، وأغلب المعلمات كن يسألن عن «الأولى» في الصف، والطالبة المتميزة، لتصبح تلك الطالبة مركز الصف ومحور المعلمة التي تدور حوله.

كنت دوماً الأولى في الصف، ربما كنت أنتظر ذلك السؤال بشغف كبير، ولكنني الآن لم ولن أسأل طالباتي عن مراتبهن أو درجاتهن في الصف، ولم أعط الأوامر بحفظ الكتاب من «الجلدة للجلدة» كما قيل لنا ونحن طلاب. لا أريد أن أختار من الطالبات المتميزات «عريفة» للصف، وأصبحت الرغبة تتعمق لدي في إحداث التغيير في تعاملي مع الطالبات بسبب تلك الصورة النمطية الحاضرة في ذهني دائماً؛ بدأت بتعريف طالباتي باسمي، وماذا درست في الجامعة، وما أطمح إليه. بينت لهن الصعوبات التي يتعرض لها أي شخص في أي وقت، وكيف يمكن أن يجتازها من خلال تجربتي، ثم سألت كل واحدة عن اسمها، وماذا تريد أن تصبح في المستقبل،

طلبت من كل طالبة أن تقول لي ماذا تعني اللغة العربية بالنسبة لها، قالت لي إحداهن أكره الإعراب، وأخرى لا أحب الشعر، وطالبة ثالثة قالت لي «لا أحب ماد ة اللغة العربية، هي شبح بالنسبة لي»، لم أفتح الكتاب يوماً لأني لم أفهم الإعراب، ولا أعرف كيف أقرأ الشعر، كانت الإجابات تقريباً متشابهة، وبخاصة في كره الإعراب، ووضعت هذه الحالات أمامي مسؤولية أكبر ورغبة أعمق في تحقيق طموحي «سفيرة اللغة العربية»، وتحويل اللغة العربية من مجرد منهاج ومادة إلى لغة ثقافة وفكر وهوية، يا الله فعلاً ... يبني أجيالاً أو يدمر أجيالاً. نعم، هو المسؤول عن الطالب، ولكن من المسؤول عن المعلم؟ ... هل هي قوانين فوقية وضعت على كاهل المعلم وأثقلته؟ وتعليمات تصدر بحق المعلم تجعله وتجبره على التقيد بالمنهاج؟ أم أن المعلم أصبح آلة إلكترونية مبرمجة منذ زمن بعيد، ولا يوجد لها تحديث، وطبع ذلك في نمط تعليمه، وفي علاقته الفوقية أحياناً بالطلاب ... .

أنا سعيدة في برنامج التعليم المساند، ولدي حرية في كيف أعلم، وماذا أعلم، ومن أعلم، لأنني أكره القيود والقوانين، والعتبات وأرفضها. أفرح كثيراً عندما أرى بعض طالباتي ممن أدرسهن أصبحن يميزن بين الاسم والفعل والحرف، أو بين الفعل الماضي والمضارع والأمر. شعرت في أحد الأيام أنني فعلاً سفيرة حين جاءت إحدى طالباتي اسمها «آية» وقالت لي: «بدي أشكرك يا مس، قرأت قصة واستخرجت منها أسماء وأفعالاً وحروفاً، أول مرة بحب أقرأ، أنا بحب العربي كنت أفكر أنه «غول». وطالبة أخرى اسمها «سماح»، تقول لي وهي من الصف التاسع:» أول مرة بعرف إنو في كاتب وروائي اسمه غسان كنفاني، شكراً لأنك خليتيني أقرأ رواية «عائد إلى حيفا» أول مرة أسمع فيها».

شجعتهن، وقدمناهن في الطابور الصباحي ضمن برنامج «أنا أقرأ، أنا أتعلم» وحصلن على جوائز، حصلن على جرعة أمل وثقة وشخصية أقوى.

وما زلنا في هذا البرنامج، وما زال إقبال الطالبات على هذا البرنامج مستمراً، وما زال دعم هذه الفئات قائماً وضمن خطة تطويرية تشجيعية للقراءة والتعلم. وتبقى التجربة والممارسة التي تكسب المعلم والطالب الخبرة في الحياة هي أكبر معلم، ويبقى التجول في لا حدود الكتاب المقرر والمنهاج والمادة المحرك الفعال.

وما زال للحكاية بقية، وسيبقى الأمل وستبقى الإرادة للوصول للأفضل وتحقيق التعلم بلا حدود، وبكل الطرق، وفي أي وقت، شعارنا ومحضر اهتمامنا.

مدرسة الشيخة فاطمة الثانوية

المعلمة آلاء حميدة خلال لقاء مع مركز البحث والتطوير التربوي لتطوير قصص المعلمات.